المثقفون
طريقان تؤدى إليهما الليبرالية

كان المثقفون يخوضون هم أيضا نضالا مريرا ضد قوات الاحتلال، وتفجرت إضرابات الطلاب فى مدرسة الحقوق والأزهر وغيرها، واتجه البعض إلى الإرهاب - كما رأينا - واتجه البعض الآخر إلى تأسيس جمعيات فوضوية.. وأخذ الكثيرون يبحثون عن طريق جديد.

وفى هذه السنوات الحاسمة من تاريخ مصر الحديث كانت تقع أشياء غاية فى الغرابة وغاية فى الأهمية..

فالأفكار تنتقل سريعا إلى مصر من كل أنحاء العالم.. أفكار تولستوى، داروين، كروبتكين، برنارد شو، ماركس، أوين.

وعدد من كتب الاقتصاد السياسى تصدر.

الاقتصاد السياسى لخليل غانم عام ١٨٢٩.

أصول الاقتصاد السياسى لرفلة جرجس عام ١٨٨٩.

الاقتصاد السياسى لجيوفتس - ترجمة جمعية التعريب عام ١٨٩٢.

مبادئ الاقتصاد السياسى تأليف محمد حسين فهمى.

الموجز فى علم الاقتصاد لبول لروا بوليه – ترجمة حافظ إبراهيم وخليل مطران[١].

ويكتب سلامة موسى كثيرا عن تولستوى، غاندى، إبسن، شوبنهور ويصدر كتابا عن نظرية داروين، ويترجم قصة الجريمة والعقاب لديستوفسكى.

ويقدم طه حسين رسالة الدكتوراه عن «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية».

وتجتذب الداروينية التى دعا إليها شبلى شميل وفرح أنطون ومجلة المقتطف كثيرا من الباحثين عن الحقيقة، وتدفعهم إلى الإيمان بالعلم وإلى خلق مدرسة فكرية جديدة ذات منهج جديد لفهم الحياة ونشأتها.

يقول إسماعيل مظهر فى مقدمة كتابه «مذهب النشوء والارتقاء»:

«إنى مكب على ترجمة كتاب أصل الأنواع والاطلاع على ما كتب فى مذهب النشوء الحديث واستجماع مواد البحث فيه منذ أوائل عام ١٩١١، حيث كنت آنذاك مكبا على الفلسفة القديمة أنهل من موارد العرب بأقصى ما تصل إليه استطاعتى.. حينذاك وقعت فى يدى نسخة من كتاب دكتور شميل «فلسفة النشوء والارتقاء» فأحدثت قراءتها فى ذهنى من الانقلاب والأثر ما تعجز الكلمات واللغة عن التعبير عنه أو وصفه، فدلفت بقدمى إلى مفازة الآراء المادية»[٢].

والحقيقة أن جهود د. شميل فى نشر النظرية الداروينية والأفكار المادية قد أثمرت بسرعة، الأمر الذى يؤكد أن المناخ الفكرى وسط المثقفين كان مستعدا للتمرد على القيود القديمة.

فسلامة موسى يكتب كثيرا فى مجلة المستقبل عن داروين ونظرية أصل الإنسان ويصدر فى ١٩٠٩ كتاب «مقدمة السوبرمان» ويترجم رسالة «جرانت آلين» عن «نشوء فكرة الله»[٣].

وخليل جبران يصدر كتابا بعنوان «شبلى شميل العالم والفيلسوف»[٤].

وكان فرح أنطون يواصل رسالته فى نشر الفكر التقدمى فى جريدة «الأهالى» وفى كتابات أخرى عديدة.

ونقولا حداد أيضا يقدم مقترحاته لمجتمع جديد.. وتشهد سوق الثقافة سيلا من الكتب عن الاشتراكية والأنظمة الاجتماعية.

وإذا كانت الاتجاهات التقدمية فى الثقافة قد بدأت تعلن عن نفسها فى العقد الأول من القرن العشرين، فإن الرجعيين لم يقفوا مكتوفى الأيدى ويتقدم دعاة الرجعية ليترجموا عديدا من الكتب ضد الثورة وضد الاشتراكية وضد التقدم.

ويصبح جوستاف لوبون إماما لكثير من المثقفين الرجعيين يترجمون كتبه ويتعاهدون على إنجاز ترجمة كل مؤلفاته، فيترجم فتحى زغلول «روح الاجتماع» و«سر تطور الأمم» عام ١٩٠٩ ويعد قراءه بأن يترجم «روح الاشتراكية» و«روح السياسة».

لكنه يموت قبل أن يفى بوعده، فيتقدم آخر لإنجاز هذه المهمة هو عادل زعيتر الذى يترجم «روح الاشتراكية» و«الثورة الفرنسية وروح الثورات».

وهذه الكتابات جميعا هى فى الأساس دعاية مضادة للاشتراكية.

ولنحاول أن نلقى نظرة سريعة على بعض ما كتبه لوبون وما ترجمه «فتحى زغلول» أو «عادل زعيتر».

«إذا نظرنا إلى الاشتراكية من حيث انتشارها رأينا أنه لايأبه لمثل هذه النظرية، لأن عقول الجموع لا تستمرئها»(٥).

«فلما كذبت الحوادث صحة مبادئ ماركس الذى ظل زمنا طويلا حبر الاشتراكية الأعظم، اضطر أشد أشياعه إخلاصا إلى تركها»(٦).

«إن أكثر نظريات الاشتراكية يناقض مقتضيات العالم الحديث، وإن تحقيقها سيقودها إلى أدوار الهمجية التى قطعناها منذ زمن بعيد، ولهذا قررنا أن مستوى الأمم على سلم الحضارة يقاس بدرجة مقاومتها لمنازع الاشتراكية»(٧).

«وينسى أنصار الاشتراكية أن مبتكرات العلم والفن والصناعة هى سر قوة البلاد وسعادة من فيها من ملايين العمال، وأن هؤلاء العمال مدينون لأصحاب العقول السامية الذين أتوا بتلك المبتكرات»(٨).

وتحاول هذه الكتابات أن تستثير الطبقة الوسطى محذرة إياها من خطر الاشتراكية..

«إن أشد أوهام الاشتراكيين بطلانا هو حكمهم بالقضاء على الطبقة الوسطى»(٩)، بل إن هذه الكتابات كانت تهاجم أبسط قواعد العدالة..

«فالمساواة شىء لا يمكن تطبيقه إلا بين المنحطين، وهى مطمح آمال صعاليك العقول، يحلمون بها وهم بأحلامهم من التعساء»(١٠).

كذلك فإنه «لا حاجة لأن يكون الإنسان ضليعا فى علم النفس ولا فى علم الاقتصاد لينبئ بأن العمل بمقتضى مبادئ الاشتراكية يفضى بالأمم إلى أرذل درك الانحطاط، وأخزى صور الاستبداد».

وثمة مؤلف مصرى هو فريد وجدى حاول هو أيضا أن يتصدى لتيار الفكر المادى، فأصدر كتابا فى ثلاثة أجزاء بعنوان «على أطلال المذهب المادى».. وهو هجوم شديد على الفكر المادى، استند فيه أساسا إلى حجج وبراهين شوبنهور.

وقد استقبل العقاد هذا الكتاب بتهليل كبير قائلا: إنه مخصص لنقض المذهب المادى وإيراد أقوال طائفة من كبار الفلاسفة والعلماء على بطلانه والدلالة على قصر نظر المتشبثين بالمادية البحتة يظنونها آخر ما يعرف من حقائق هذا العالم، ويخيل إليهم أن «لا» التى يقولونها ليس بعدها «نعم» ولن يأتى بعدها جواب آخر».

ويمضى العقاد مؤكدا «إن فائدة كتاب وجدى الوطنية والأخلاقية أكبر من فائدته الدينية، لأننا نعلم أننا لم نصب فى نهضتنا الوطنية أضر من ضعف اليقين وقلة الثقة بمبادئ الأخلاق السامية، وهى عيوب فى النفس - كما قلنا - قبل أن تكون عيوبا فى طرق التفكير.. ولولا هؤلاء الهلافيت الذين ملأهم جهلهم حتى لم يبق فيهم فراغا لجهل أو لعلم لما كانت حالتنا الآن ما نرى..»[١١].

ولست أريد أن أستفيض فى التعليق على هذه الظاهرة.. ظاهرة إصدار كتابات معادية للاشتراكية، مكتفيا بالإشارة إلى أنها لا بد أن تكون رد فعل لتلك الحركة الجارفة التى كانت تجتاح الفكر المصرى فى ذلك الحين دافعة إياه فى طريق العلم والتقدم والوعى الطبقى.

ولعلها أيضا دليل على اليقظة الشديدة والإحساس الطبقى لكبار الملاك والرجعيين المصريين الذين سارعوا إلى مقاومة التيار الجديد بسيل جارف من الأفكار المعادية.

وثمة ظاهرة أخرى تستلفت النظر هى خفوت صوت الاشتراكية الإسلامية فى تلك الأيام، فإن ارتفاع درجة حرارة الصراع الطبقى وتقدم الشيوعيين إلى الميدان، كذلك انتصار البلاشفة الروس فى عام ١٩١٧.. كل ذلك قد دفع الكثيرين إلى الخوف من الاشتراكية، بعد أن تحولت من مجال ممتع للبحث النظرى والتفلسف العقائدى إلى خطر يهدد، ويستثير المشاعر الطبقية.

وتردد الصحف والمحافل المصرية فى مرات عديدة الفتوى الشهيرة التى أصدرها شيخ الإسلام بالأستانة ضد الاشتراكية والبلشفية قائلا: «يشتمل الدين الإسلامى من الأحكام الأساسية ما يناقض جميع المسالك الاشتراكية، وخصوصا البلشفية، التى هى عبارة عن شكل خطر لها لأن من شأنها الإخلال بالملكية الشخصية وحقوق التصرف فيها»[١٢].

كذلك سوف نشهد فتوى شرعية أخرى تصدر فى مصر عقب تأسيس الحزب الاشتراكى، وسوف نشهد هجوما شديدا من الشيخ التفتازانى وغيره من كبار العلماء.

وقد كان ذلك كله – فى اعتقادى – إحدى الدلائل على نضج الصراع الطبقى، وعلى أن الاشتراكية قد أصبحت مسألة واقعية تمس الحياة اليومية، وليست مجرد أبحاث نظرية لا تتعلق بالواقع الفعلى للبلاد.

لكن تيار التقدم كان أعمق من أن يقهر، ونزعة التجديد والإيمان بالعلم وبضرورة التخلص من تقاليد وقيود الماضى كانت جارفة وشاملة لميادين عديدة فى الأدب وأسلوب الكتابة ومنهج التفكير، وحتى فى صياغة الشعر والأدب..

ويكتب حافظ إبراهيم:

أن يـــا شـــعـــر أن تـــفك قـــيـــودا
قـــيـــدتـــنـــا بـــهـــا دعـــاة المحـــال
فـــارفـــعـــوا هـــذه الـــكـــمـــائم عـــنـــا
ودعـــونـــا نـــشم ريح الـــشـــمـــال

(يقصد ريح الحضارة الغربية)

ولقد خاض المثقفون معركة ضارية من أجل حرية الفكر وحرية التعبير وثمة نماذج عديدة.. لكننا سنكتفى ببعضها..

هاك أبيات من الشعر قالها مطران:

شـــردوا أخـــيـــارهـــا بـــحـــرا وبـــرا
واقـــتـــلـــوا أحـــرارهـــا حـــرا فـــحـــرا
إنمـــا الـــصـــالح يـــبـــقى صـــالحـــا
آخـــر الـــدهـــر ويـــبـــقى الـــشـــر شـــرا
كـــســـروا الأقلام.. هل تـــكـــســـيـــرهـــا
يمـــنع الأيـــدى أن تـــنـــقش صـــخـــرا
اقـــطـــعـــوا الأيـــدى هل تـــقـــطـــيـــعـــهـــا
يمـــنع الأعـــين أن تـــنـــظـــر شـــذرا

أطـــفـــئـــوا الأعـــين.. هـل إطـــفـــاؤهـــا

يمـــنـع الأنـــفـــاس أن تـــصـــعـــد زفـــرا

أخـــمـــدوا الأنـــفـــاس.. هـــذا جـــهـــدكم

وبـه مـــنـــجـــاتـــنـــا مـــنـــكم فـــشـــكـــرا

ويكتب خليل مطران ملحمة نثرية يدافع فيها عن الجماهير وحرياتها، محتجا أشد الاحتجاج على قانون المطبوعات الذى يقيد حرية الكتابة فيقول:

«فى مصر وفى الأستانة العلية خطتان رسمتا للتضييق على الصحافة يراد بهما أن تصدر الجريدة كما يخرج الكلب العقور من بيت صاحبه وفى فمه كمامه».

«إن التقييد للأفكار قلما زادها إلا قوة وانتشارا».

«أليس الشعب قوى شتى: قطرات سيل عرم، شرر لهيب آكل، مجال ألوف العقول.. متكاتف أجساد لو اجتمعت لدكت الرواسى؟»[١٣].

«إن أخص معنى وأشرف معنى من معانى الحرية هو حرية الصحافة». بل إن ثمة لمحات فى شعر مطران تهاجم الأغنياء والملكية الخاصة..

أن يـــجـــهـل الـــشـــعـب فـــالـحـــكم الخـــلـــيق به

حـق الـــعـــزيـــزين من والٍ وســـلـــطـــان

أو يـــرشـــد الـــشـــعـب يمـــسى الأمـــر فى يـــده

ولا اعـــتـــداد بـــأمـلاك وأعـــيـــان

والحقيقة أن الشعر قد لعب دورا كبيرا فى معركة النضال ضد الاستغلال ومعركة الدفاع عن حقوق الكادحين..

فهؤلاء الشعراء والمفكرون الذين خاضوا معركة الدفاع عن حقوق الوطن وعن الحرية والديمقراطية وجدوا أنفسهم يخوضون -بالرغم منهم- معركة طبقية ضد كبار الملاك الذين تعاونوا مع المحتل وضد كبار الملاك من الأجانب..

وهكذا ظهر إلى الوجود شعر ثورى وطبقى يمكن اعتباره سلاحا فى معركة التوعية الاشتراكية..

ففى عام ١٩١٤ عندما تشتد أزمة البطالة وتخرج جموع العمال العاطلين تحمل رايات حمراء تطالب «بالخبز أو العمل» يصرخ الشاعر عبدالرحمن سالم فى جموع العاطلين صائحا[١٤]:

برح اليوم بالظهور الخفاء
فكلوا الأغنياء يا فقراء
امضغوهم وعلقوا الإثم فى
جيدى فهم بانتحارنا الأثماء
وابلعوهم.. وكلكم مستعد
لابتلاع الأحجار لولا الحياء

وثمة قصيدة أخرى كتبها الشاعر القروى ووجهها إلى «الأغنياء الجائرين» تقول[١٥]:

مضى عصر النخاسة من زمان
ولاح على البرية غير شمسه
زمان كان فيه العبد يشقى
ليسعد قلب سيده بنحسه
لقد حان الزمان لوضع حد
لظلم المستبد وسحق رأسه

وثمة نماذج كثيرة لمثقفين من أبناء هذا العصر بدأت خطاهم على طريق المطالبة الليبرالية بالحريات والدستور، ثم قادتهم خطاهم إلى الصدام بالاحتلال وبأعوان الاحتلال ثم اتخاذ موقف طبقى صريح ضد هؤلاء الملاك الكبار والأغنياء الكبار المتعاونين مع الإنجليز فانتقلوا من الليبرالية إلى الدفاع عن الكادحين..

ولنقدم نموذجا واحدا من هؤلاء وهو ولى الدين يكن..

ويكن أديب ليبرالى التفكير عشق الحرية بإحساس مرهف وتغنى بها تغنى المحب بمحبوبته «يا حرية أنا عرفتك وهمت بك هياما، فأنا أحبك من قبل ومن بعد ولن أخاف منذ اليوم رقيبا»[١٦].

بل هو متنزل فيها شعرا[١٧]:

نشتاق حرية فيؤسينا
من دهرنا عن حالها ضننن
أوهننا حبها وتيمنا
حتى ترانا وشفنا الوهن

ويمضى فى حديثه عن الحرية:

«الحرية طافت بلاد الله فكلما دخلت أرضا أعتقت المعتقلين فيها فلما طرقت تركيا اعتقلوها فى سجنها بيلدز»[١٨].

لكن دفاعه عن الحرية يقوده للنضال ضد المستبدين:

«فالحرية حبيبة الشعوب وعدوة الملوك».

وهو يهاجم الحكام المستبدين قائلا:

بغال تسوس الأسد شر سياسة

ما ساس أسدا قبل ذاك بغالُ[١٩]

وهو يشن هجوما قاسيا على رجال الدين:

«فالعامة تحب الشيء إذا حببه إليها زعماؤها وتبغضه إذا بغضه إليها زعماؤها، وزعماء العامة عندنا رجال الدين وهؤلاء لا يرغبهم فى الشورى شيء فهم يحبون أن يظلوا متحكمين على الرقاب وأن يبقوا عيالا على الأمة وأن يلثم الناس أيديهم ويملئوا أكياسهم»[٢٠].

وهو يتهكم عليهم فى جرأة.. قائلا:

«لو جمعنا العمائم التى بالبلاد العثمانية وجعلناها بعضها فوق بعض بنينا حصنا يعجز عن هدمه أسطول إنجلترا بأسره»[٢١].

وهو يرفع صرخة المظلومين عالية:

«أيتها النفس.. بلِّغى خالقك أنا مظلومين.. أفضى إليه بحاجتنا.. هو يعلمها ولكن لا بد من نوْحة لديه»[٢٢].

لكن الأمر لم يقتصر عند هذه الحدود فيكن الذى دفعه حبه الدافق للحرية إلى مجابهة الظالمين والمستبدين تدفعه هذه المجابهة للظالمين إلى مساندة الكادحين فى معركتهم ضد الاستغلال..

ولعل أهم ما يلفت النظر فى هذا الصدد مقالين وردا فى كتابه «الصحائف السود» الأول بعنوان «مقتل فرر» و«فرر» هذا مناضل إسبانى دافع عن حقوق شعبه فحكموا عليه بالإعدام. وتنطلق كلمات ولى الدين يكن حاسمة قوية صارخة:

« هن ثلاث رصاصات رميت بأسبانيا فجاوبت دويها بلاد الله فى أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا.. ثلاث رصاصات رمتها حكومة متمدنة بمشهد من حكومات متمدنة

فقتلت رجلا متمدنا، حرا أشقته حريته، عارف أجهدته معرفته، ومنصف أرداه إنصافه، أبى زعامة الفرد على الجمع، وكره أن يرى أناسا يرفلون فى ثيابهم المخملة يجرون أسيافهم وتخفق على رؤوسهم خرق فوق قضبان يسمونها أعلاما، وأن تكثر حكومات الأرض من جمع هؤلاء فى أزيائهم المضحكة لتقتل أمثالهم، أنف أن يرى إخوته أبناء آدم يتنازعون أكنافا من الأرض ليست لهم ولا لغيرهم ولكنها لكل الناس، فما يجزع على فرر سكان القصور العالية ولا المدخرون للذهب والفضة ولا سراة القوم ولا الوزراء ولا كبار الموظفين وإنما يجزع عليه المنفيون إلى أقاصى سيبيريا حين يعض الحديد على سواعدهم، والمقيمون فى ظلمات السجون فى سائر أقطار الأرض بل يبكى عليه كل من ذاقوا مرارة الظلم والاستبداد فى أسر المستبدين، الأرمنى الذى قتل أقربوه فى مذابح الأناطولى، والتركى الذى ألقى ذووه فى لجج البوسفور والعامل فى أعماق الموانى محروما من نور الشمس ولطف الهواء، والفقير الذى يحس بالفاقة ولا يتجاسر على شكايتها.. كل يندب فرر وكان فرر يندبهم»[٢٣].

إن أهم ما يلفت النظر فى هذا المقال هو الروح الأممية الدافقة والإحساس الطبقى الواضح..

أما المقال الثانى فهو بعنوان «العمال فى البلاد العثمانية»[٢٤] كتبه ولى الدين يكن ردا على رسالة وصلته من عامل عثمانى يدعوه إلى نصرة العمال فقال:

«أيها الأخ العامل.. لبيك ألفا، هذا يمين الإخاء أمده إليك فإن كنت خاطبا ودا الود لك، وإن كنت شاكيًا ظلمًا فيراعى لسانك وبيانى ترجماتك، وأنا وحياتى دريئة لك من المخاوف».

ويمضى ولى الدين مهاجما الأغنياء والحكام:

«ادخل حجرة الوزير تلق بها الأوانى المذهبة فى نقوشها وتصاويرها وهو مضطجع على سرير أقل مسمار فيه أغلى من مالكه ثمنا وأنفس قدرا هو يحسب أن العامل يدور كاللولب لا يجهده تعب ولا يضنيه كد ولو رآه فى معمله متصببًا جبينه عرقا مشمرا عن ساعدين مفتولين عزما، متهللا فرحا فى حزنه، شاديا فى مناحة حظه، لأخذه الروع ولخارت تلقاء ذلك المشهد المهيب قواه».

ثم هو يقدم صورة بشعة لحياة العامل التركى..

«إن بين الحيطان السود تحت سحب الدخان، أمام النار يذكيها الكير الزافر وتحت أعماق من الأرض ذرعها ثلاث مائة ذراع أو أكثر رجالا شعث النواصى، غبر الوجود، نبا عن أجسادهم النعيم وأجفلت عنهم السعادة يخدمون بنى الإنسان كأن لم يكونوا من بنى الإنسان».

ثم تعلو صيحة ولى الدين:

«من أراد أن يجور على العمال فليستغن عن العمال، ليقل هؤلاء الكبراء والأوسمة تشرق على صدورهم والأثواب المخملة تكاد تلتهب على أجسادهم وهم نجوم أفق الدولة ودرر عقدها المنظوم، إننا فى غنية عن العمال، وإذا نزعنا عنا هذه الحال الباهرة ملنا إلى المعامل وشمرنا عن ساعدنا وصنعنا لأنفسنا وليصنع العمال لأنفسهم هنالك يعلم كل عمله».

..ويختم ولى الدين رسالته مخاطبا العامل قائلا:

«إن كان هذا يكفيك أيها الأخ العثمانى فالحمد لله على خدمتك وخدمة إخوانى».

وقد كان ولى الدين يخوض هذه المعركة وهو يحلم بمجتمع جديد قدم له صورة غاية فى الشاعرية، مجتمع أمواله كثيرة ولو أحسن إنفاقها لصارت «أعمدة النور فى الطرقات من الفضة، ولو بذلت فى تعليم الأبناء لصاروا كالأنبياء، ولو بذرت فى الأرض لنبتت السنابل ذهبا، ولو أنفقت على الفقراء لأصبح السائلون يشترون ملابسهم من «ريبو» ويفطرون على «الشكولاتة»[٢٥].

وبعد.. فإن ولى الدين لم يكن هنا أكثر من نموذج لهذا التحول الذى طرأ على مواقف كثير من المثقفين الليبراليين الذين تحولوا فى خضم الصراع الطبقى العنيف ونتيجة لإفلاس الطبقات المالكة وللصمود الشجاع للطبقة العاملة، تحولوا من الليبرالية إلى معركة الصراع الطبقى منحازين إلى صفوف الكادحين.

ولم يكن ولى الدين وحده هو الذى تحول.. فهناك كثيرون غيره.

وإذا كان ولى الدين يمثل جيلا من هؤلاء الليبراليين الذين توسلوا بعواطفهم المرهفة وأحاسيسهم النبيلة ومواقفهم الأخلاقية إلى الدفاع عن الكادحين فثمة ليبراليون آخرون دافعوا عن الديمقراطية بل وعن الاشتراكية فى بعض الأحيان، ثم انساقوا بعد ذلك فى طريق آخر..

أحد هؤلاء عباس العقاد..

ولعل هذا يبدو غريبا بعض الشيء؛ فنحن نعرف موقف العقاد الطبقى وموقفه من الفكر المادى، وتمجيده لكتاب فريد وجدى.. لكننا مع ذلك لا نملك إلا أن نتأمل كتابات العقاد عن الاشتراكية ومحاولاته الظهور بمظهر المدافع عنها..

ولنبدأ بتعليقات سريعة أوردها عرضا فى بعض مقالاته..

فهو مثلا يقدم دراسة عن أبى العلاء المعرى ويفرد فيها فصلا عن «اشتراكية المعرى» ويورد عددا من قصائده يدافع فيها عن الفقراء والمظلومين لكنه لا يلبث أن يعلق عليها بجملة ذات مغزى كبير فيقول «نعم إن الاشتراكية لا تعتمد فى حقوقها على الرحمة ولكنها لا تطلب من شعرائها أكثر مما قال المعرى»[٢٦].

إنه يحاول أن يقدم فهما متقدما لمعنى الاشتراكية.

لكن أهم ما كتبه العقاد بهذا الصدد هو محاولة لانتقاد كتاب «سر تطور الأمم» لغوستاف لوبون وذلك عقب نشر الترجمة العربية التى أشرنا إليها فيما سبق..

ويهاجم العقاد الكتاب، يهاجم فيه تعنته ضد الاشتراكية واعتراضه على فكرة المساواة.. فهو يقول «والكتاب بجملته حملة منكرة على المساواة والاشتراكية، يخيل إليك أن الدكتور لوبون يكتب عن المساواة بقلم شارل الأول أو لويس السادس عشر وأنه يكتب عن الاشتراكية بإيعاز من روتشيلد أو روكفلر، فتراه ينعى على مبدأ المساواة ولكنك لا تعلم منه كيف يبرر عدم المساواة، وتراه يتشاءم من الاشتراكية كما يتشاءم الناس من نعيب اليوم لا يعلمون لذلك التشاؤم سببا»[٢٧].

ويمضى العقاد قائلا: «الحقيقة أن نظام مجتمعنا الحاضر مشتمل على نقائص ومثالب لا ينفرد بالسخط عليها وطلب تبديلها الاشتراكيون. ومن العلماء من لا يحسبون أنفسهم من الاشتراكيين ولا يحسبهم الاشتراكيون منهم.. وهم مع هذا يشكون ظلم النظام الحاضر شكوى غلاة الاشتراكية ويرون رأيهم فى بعض الحلول التى يقترحونها».

«إن الاشتراكية الصحيحة ليست أسطورة من الأساطير ولا هى وعد خيالى يبشر الناس بالتعادل فى الأقدار والتشاكل فى المنزلة والأرزاق كلا، فليست المساواة بين الناس من همها ولكنها تدعو إلى المساواة بين الأجر والعمل وتطلب أن تعطى كل عامل ما يستحقه بعمله، وأن ينتفع المجموع بأكثر ما يمكن الانتفاع به من قوى الأفراد فإذا كانت

الدنيا قد حل أجلها وقارب يومها لأن جائعها يريد أن يشبع ومنهوكها يتمنى أن يستريح ومظلومها يود أن ينتصف، فلشد ما هزلت هذه الدنيا».

وكالعادة يلجأ العقاد إلى التراث الإسلامى ليستمد منه سندا فى دفاعه عن الاشتراكية فيقول:

«قال عبد الله بن معاوية: ما رأيت تبذيرا قط إلا وإلى جانبه حق مضيع.. ولو شاء زعيم من زعماء الاشتراكية اليوم بأن يتخذ لمذهبه شعارا لما زاد على تلك الحكمة حرفا فالاشتراكية الصحيحة تقوم اليوم لتسترد ذلك الحق المضيع».

وكذلك فإن العقاد يهاجم النظام الرأسمالى «فالنظام الاقتصادى الحاضر قد صير العامل قوة آلية وسلبه كل وسيلة لاستخدام ذكائه وحذقه، وهذا النظام الاقتصادى المودى بالمواهب المعطل للعقول هو النظام الذى تثور عليه الاشتراكية. فما قامت الاشتراكية إلا لترقى مدارك العامل وترفع عنه حيف صاحب العمل وتجعله إنسانا ذا رغبة فى عمله وغيرة عليه.. وليس كما هو الآن آلة تدير آلة».

وهو يهاجم الرأسماليين قائلا: «ومنذ أخرج العلم للناس تلك الآلات الضخمة أصبح كل صاحب معمل يتمتع بتعب الألوف من الصناع الذين يستخدمهم فى معمله، فكان التعب والحرمان من نصيب فريق، والراحة والربح من نصيب الفريق الآخر».

وهو فى النهاية يؤكد «لا بد للأمم من معتقد جديد، أفتدرى ما هو هذا المعتقد؟ تحسبه هو وحدة الإخاء أو هو التضامن الإنسانى أو هو- فى بعض مظاهره التى يفهمها الناس سواء- الاشتراكية».

.. لكن العقاد بالرغم من ذلك كله لم يكن داعية للاشتراكية الحقة فهو يفهم الاشتراكية على نحو خاص.

فهو يتحدث عن اشتراكية أمريكا.. قائلا: « إن حكومة الولايات المتحدة قد طاردت منذ سنوات أكبر شركات الاحتكار فحلتها وألزمتها غرامة فادحة فإن كان لويون يعنى بالاشتراكية مظهرا أقوى من هذا فليهدأ فليس فى أمريكا ولا فى أوربا، بل ولا فى الدنيا جميعها اشتراكية(*).

وكل ما ينادى به العقاد هو بعض الخطوات الإصلاحية «فالواجب على ولاة الأمر فى كل أمة أن يعترفوا بنقائص المجتمع ولا تفتنهم عن إصلاحها عصبية الطبقات، لأن الكثير

من هذه النقائص قابل للإصلاح والتخفيف لولا تعنت من بعض الطبقات القوية يجر إلى تعنت الطبقات الأخرى وتفاقم النزاع على غير جدوى».

ولست بحاجة إلى التعليق على كلمات كهذه فهى تتصور أن حل قضايا الصراع الطبقى من أجل الاشتراكية يمكن أن تحل من خلال بعض التساهلات أو الإصلاحات.. تقدمها الطبقات الغنية..

وفى عام ١٩٢٣ يخطو العقاد خطوة أخرى.

فهو يقدم لقرائه فى جريدة البلاغ كتابين لماكس نوردو[٢٨] «الاضمحلال» و«الأكاذيب المقررة فى المدنية الحاضرة».

وحول الكتاب الثانى يقول العقاد أنه «حملة على المجتمع فضح فيها نوردو كل ما ظهر من أكاذيب الحضارة الأوروبية كأكذوبة الدين وأكذوبة الحكم الملكى المطلق. وكان نوردو حين أصدر كتابه هذا عظيم التفاؤل كبير الأمل فى مستقبل الإنسانية، فتنبأ بمجىء عصر تمحى فيه العيوب فى حضارة العصر وتحل محلها حضارة قائمة على الحب والإخاء والتضامن بين الناس وقال فى ختام كتابه:

«إنى لأنظر إلى هذه المدنية مدنية اليوم التى شعارها التشاؤم والأكاذيب والجشع فأراها تتوارى وتخلفها مدنية أخرى قائمة على الحق والسعادة يومئذ تصبح الإنسانية حقيقة واقعة لا فكرة مجردة فطوبى للأجيال القادمة التى سيكون من نصيبها أن تحيا فى جو المستقبل الصافى مقدمة عليها أنواره المشرقة.. إنها ستحيا فى ذلك الإخاء الدائم فى أفق من الصدق والمعرفة والصلاح والحرية».

ونوردو يهاجم فى كتابه هذا أسس الحكم البورجوازى أو كما كانت تسمى فى ذلك الحين الحكم الديمقراطى «فليست حكومة الديمقراطية بحكومة الشعب كما يقولون ولكن هى حكومة فئة قليلة من ذوى المطامع المهيمنين على تنظيم الأحزاب ونشر الدعوة ومخادعة الجمهور واستجلاب الأعوان بالوعود والمكافآت والمناصب. فالديمقراطية طراز جديد من الحكم المطلق القديم أو هى خمرة عتيقة فى آنية جديدة».

وكان هناك آخرون غير العقاد انغمسوا فى نفس الاتجاه الليبرالى ثم انساقوا خطوة تحت ضغط الصراع الطبقى وتحت تأثير الخوف من حركة الطبقة العاملة إلى النقيض.

ومن بين هؤلاء كثيرون من أبناء الإقطاع الذين سافروا إلى أوربا وتأثروا بالفكر الليبرالى الفرنسى والأوربى عموما.. ثم عادوا يناقشون موضوعات الحرية والديمقراطية والاشتراكية من قبيل الترف الفكرى والمتعة الذهنية، حتى إذا جد الجد وبرزت الطبقة العاملة والتجمعات الاشتراكية عملاقا يتحرك فى سرعة وشجاعة إبان ثورة ١٩١٩ بدأ الجميع يعودون إلى صوابهم، بل إنهم انطلقوا متراجعين إلى موقعهم الطبيعى فى أقصى اليمين .. حزب الأحرار الدستوريين..

ولطفى السيد.. هو أحد الذين بشروا طويلا بفلسفة تولستوى.. وحتى جريدة «الجريدة» التى كان يصدرها حزب الأمة كانت سبيلا لبعض لمحات ديمقراطية وليبرالية..

ويرثى مصطفى عبد الرازق الجريدة قائلا:

«استبشرنا بها راية يلتف حولها الجوهر المصفى من شبابنا، وتسير فى ظلها دعوة الحرية والتقدم بين جاه العلم والعقل، وجاه العصبية والغنى ثم ماتت الجريدة وتفرق عنها أصحابها غافلين لاهين بمظاهر ألقابهم وأموالهم، إن المرزوئين فى الجريدة هم أهل الجد من فتيانها الذين كانت صحيفة الأعيان مظهرا لمذاهبهم الحرة وأفكارهم الجديدة»[٢٩].

وبعد الجريدة.. كانت هناك «السفور» و«السياسة» و«الجامعة».

ويصدر د. هيكل قصة زينب وهى أول قصة تتحدث عن حياة الريف ومآسيه.

وباختصار فإن المثقفين من أبناء الذوات قد استطاعوا أن يحدثوا ضجة ثقافية هزت الركود الفكرى الذى نسجته سنوات الحرب والحماية الإنجليزية واستطاعوا أن يوقظوا كثيرا من الأذهان ويحركوا عديدا من المشاعر.. وإذا كانوا قد تخلوا عن ذلك كله فيما بعد، فإن ما قدموه قد ترك آثارا لا تمحى فى عقل وذهن المثقف المصرى.

لقد كانت هذه السنوات سنوات من البحث المضنى عن طريق الفكر والوطنية والقومية والمنهج الفلسفى، وكان المثقف المصرى قد استيقظ فجأة ليجد سوق المذاهب والأفكار والمعتقدت مزدحما فانشغل طويلا فى التأمل والدراسة والتنقل بين هذا وذاك.. وبعد هذه الموجة العارمة من البحث المختلط. السريع التقلب.. ونتيجة للتمايز الذى حددته بصراحة مواقف العمال المصريين فى ١٩١٩، وبيانات الاشتراكيين وبرامجهم.. انطلق كل من هولاء الباحثين المترددين إلى موقع طبقى يتحصن فيه.

وهكذا فإن كثيرا من المواقف التى اتخذت فى ذلك الحين يجب ألا تدفعنا إلى تحديد تقييمات سريعة ومتعجلة لهذا الشخص أو ذاك فقد كان الجميع منغمسين فى غمرة الاختيار والمفاضلة والتنقل بين الأفكار. ولكى يكون التقييم موضوعيا يتعين عليه أن تأتى سنوات قليلة بعد ثورة ١٩١٩ ليرى كل من هؤلاء وقد اتخذ موقعه الصحيح.

والحقيقة أن مثقفى هذه الفترة كانوا يدركون ذلك، كانوا يشعرون أن ما يجمعهم هو الرغبة المشتركة فى البحث عن شىء جديد وأن الأيام لن تلبث أن تفرقهم فى طرق مختلفة بل ومتصارعة..

ويقدم العقاد صورة لهذا الإحساس عندما يتحدث عن فرح أنطون.. راويا قصة لقائه الأول به فى جريدة الأهالى.. وقوله له «إنك يا فرح أفندى طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة العاملة وسيعرف لك المستقبل من عملك ما لم يعرف الحاضر، وستكون - حين يفترق الطريقان- خيرا مما كانت فى هذا الملتقى المضطرب»[٣٠].

ولقد تحققت نبوءة العقاد فسرعان ما افترقت الطرق واتجه البعض يسارا واتجه الكثيرون يمينا.. بل وإلى أقصى اليمين..

الهوامش

(١) عمر الدسوقى – فى الأدب الحديث، ص٢٩٩.
(٢) إسماعيل مظهر – مذهب النشوء والارتقاء – الجزء الأول – ص٤.
(٣) محمود الشرقاوى – سلامة موسى – الفكر والإنسان – ص١٠٧.
(٤) المرجع السابق – ص١٠٧.
(٥) جوستاف لوبون – روح الاشتراكية ترجمة عادل زعيتر – ص٦.
(٦) المرجع السابق – ص٥.
(٧) المرجع السابق – ص٣٠٢.
(٨) جوستاف لوبون – روح الثورات – ترجمة عادل زعيتر – ص١٥٨.
(٩) جوستاف لوبون – روح السياسة – ترجمة عادل زعيتر – ص١٢٦.
(١٠) جوستاف لوبون – سر تطور الأمم – ترجمة أحمد فتحى زغلول.
(١١) عباس العقاد – على أطلال المذهب المادى مقال فى جريدة الأفكار ١٩٢٢/١٠/٣٨.
(١٢) جريدة الأخبار – ١٩٢٠/٩/٢٠.
(١٣) طاهر الطناحى – حياة مطران – ص٢٥٧.
(١٤) أمين عز الدين – المرجع السابق – ص١٤٣.
(١٥) مجلة الهلال مجموعة عام ١٩١٩.
(١٦) ولى الدين يكن – المعلوم والمجهول – الجزء الثانى – ص٤.
(١٧) محمود الشرقاوى – مقال بالهلال – مارس ١٩٦٧.
(١٨) ولى الدين يكن – المعلوم والمجهول – الجزء الأول – ص٦٣.
(١٩) سامى الكيالى – ولى الدين يكن – ص٤١.
(٢٠) ولى الدين يكن – المعلوم والمجهول – الجزء الثانى – ص٩.
(٢١) ولى الدين يكن – التجاريب – ص٣١.
(٢٢) ولى الدين يكن – عفو الخاطر – ص٥٨.
(٢٣) ولى الدين يكن – الصحائف السود – ص٥٢.
(٢٤) المرجع السابق – ص٥٧.
(٢٥) محمود الشرقاوى – مقال مجلة الهلال – المرجع السابق.
(٢٦) نظرات فى فلسفة المعرى– مقال فى المقتطف– عدد نوفمبر ١٩١٦.
(٢٧) عباس العقاد– الفصول– طبعة عام ١٩٢٣– ص١٥٥.
(*) يلاحظ أن العقاد كتب هذا المقال بعد ثورة أكتوبر.
(٢٨) البلاغ– ١٢ فبراير ١٩٢٣.
(٢٩) مجلة مجمع اللغة العربية الجزء ١٤ سنة ١٩٦٢ ص٢٠٧ كلمة الأستاذ شفيق غربال فى تأبين الدكتور محمد حسين هيكل بجلسة مجمع اللغة العربية فى ١٩٥٧/١١/٤.
(٣٠) عباس العقاد– مطالعات فى الكتب والحياة– ط٢– ص٦٥.